

## القصص النفساني عند الجاحظ

بقلم : البشير المجذوب

من يتصفح كتب الجاحظ الرئيسية (وأعني بها كتاب الحيوان وكتاب البهلاء وكتاب البيان والتبيين) يُلاحظ أن القصص (1) فيها يمتاز بغزارة المادة وشمولها ، بتعدد الموضوعات وتنوعها حتى لنكاد نقول إن الجاحظ استوعب بقصصه وأخباره جميع نواحي الحياة ، قد جال في جميع قطاعاتها ، وشارك في كل منها بنصيب قيم هام .

فمن قصصٍ نفساني وقصص اجتماعي تتجلى فيهما شخصية الجاحظ الرائدة المبدعة ، إلى قصص أخباري ليس مجرد روايات وأحاديث تساق كما هي واقتصر فيها على إحكام السند والتثبت من المتن ، وإنما هي في أغلب الأحيان مشفوعة بتعاليق وملاحظات نقدية تُدرجها في إطار تلك الخطة المرسومة ، تلك الحركة العظيمة التي تزعّمها المعتزلة (وعلى الأخص الجاحظ في كتاب الحيوان) الهدفُ منها غزبله جملة المعارف المتداولة وتطهير العقليّة الإسلامية من الأوهام والعقائد الخرافية لكي تصبح عقلية متبصرة مكتملة

(1) لم نعتد في هذا القسم الأول من البحث رسائل الجاحظ لقلّة ما ورد فيها من قصص نفساني . ثم إن هذا القليل مجرد أخبار يغلب عليها أسلوب السرد ولا تتوفر فيها مقومات القصة من تشويق وحوار ودقة وصف وتصوير وعمق في التحليل النفساني (وإن في صورة لمحات وومضات) . لا نستثنى إلا رسالة «مفاخرة الجوّاري والغلمان» الخافلة بأخبار «الجنس» والمركزة عليه تركيزاً إلا أن ما فيها من صراحة مفرطة وجسارة نادرة يحول دون الاستشهاد .

الوعى ، عقلية إيجابية تضع الأمور مواضعها ولا تخلط بين شؤون الدين وبين قوانين الطبيعة ، أو ما يعبر عنه الجاحظ بـ «طبايع الأشياء» .

إلى قصص يتعلق بالحياة الفكرية والحياة السياسية ، إلى قصص حيوان هو فتح آخر إلى جانب فتوحاته وجولاته المستقصاة الموفقة في عالم النفس والاجتماع ، إلى نواذر وملح قلما تنفصل فيها ملاحظة النكتة عن أهمية الفكرة . وفي هذا مصداق لرأي أحمد أمين في الجاحظ إذ قال : « إنه جعل للأدب موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا » (2) .

\* \*

الجوانب النفسية التي عرض لها قصص الجاحظ كثيرة منها البخل (وقد أفرد له كتابا برمته هو من أنفس مؤلفاته) ومنها التكلف .. ألوان من التكلف كالوقار المتكلف والتفصيح وتصنع الشجاعة والتشبه بالغير ، ومنها الجبن والنهم بالأكل والشراب وأخلاق الغلمان والجواري والخصيان والموالي ، ومنها الطيرة والغزل و«الجنس» وطائفة من الأحوال والأذواق والنفسيات الشاذة التي تبلغ درجة الحالة المرضية مما اختص به الجاحظ ولا نظير له في الآثار القصصية السابقة وهو يدل على اهتمام بالغ بالنفس البشرية... بالتعرف إلى دقائق أحوالها وغوامض أسرارها .

ومنها صنف غريب لا أثر له البتة عند من سبقوا الجاحظ ولربما عنا. من لحقه من قصاص العصور القديمة وهو ما أدعوه القصص النفساني البيولوجي (3) .

ولئن كان في تعداد المواضيع فائدة فإن هذه القائمة ناقصة قاصرة عن إعطاء فكرة عن طبيعة القصة الجاحظية لأن العسيرة ليست بالمواضيع وكثرتها

(2) نقلا عن الحاجري من مقدمته لكتاب البخل . ط. دار المعارف 1958.

(3) كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ج 1 ص 148 ؛ ج 4 ص 425 الطبعة الأولى 1944.

وتنوعها وإنما بشيء تفرّد به الجاحظ دون سابقيه يتمثل في الزاوية التي ينظر منها إلى الإنسان وهي البحث عن كل غريب عجيب وشاذ خارق من خصائص النفس البشرية مما قد يُعَدُّ مادة من مواد علم النفس التحليلي ، لاتصاله بتلك المنطقة المعتمدة المظلمة من النفس أي جانب اللاوعي والاشعور .

كما يتمثل في مدى التقصّي في النظر والغوص والتحليل حتى لينطبق على الكثير من قصصه ولوحاته الوصفية وتحليله النفسية قول ابن رشيّق القيرواني في شعر ابن الرومي : « كان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ، ويصرّفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يُسَيِّتَهُ ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد » (4) .

لقد وجه الجاحظ أضواء بصيرته الكاشفة وسهام نقده اللطيفة اللاذعة إلى أصناف كثيرة من النفسيات استهوته جميعاً بطرافتها وغرائبها و« طيها » (5) وسُخِّفَها ولكنّه أولّيع بل أغري بصفة خاصة بالشخصيات التي ابتليت بالتكلف والتصنع لئلاّ ليس من طبعها ولا في طاقتها .

فليس أحب إلى الجاحظ من أن لا يتجاوز الإنسان غايته فينسلخ أو يحاول الانسلاخ عن طبعه ومزاجه . فإن فعل فهو حيثنّد أسخف ما يكون ويُضحّي مادة خصيية يغنمها الجاحظ فيؤلف منها القصص واللوحات الحافلة بالنقد والسخرية الزاخرة بالظرف والحياة .

كما أنه أغري أيضاً — وقد لمحنّا إلى هذا آنفاً — بالنفسيات الشاذة البالغة الشذوذ وكأن رائده في نظراته إلى الإنسان : أن الإنسان بما فيه من تفرّد وامتياز وغرابة وشذوذ وما سوى ذلك فإنّ مشاع لا فضل فيه على سائر الحيوان . ولعله انتبه ، من يادري ؟ وإنّ في غير وعي كامل ، إلى تلك الحقيقة العظيمة

(4) العمدة ج 2 ص 226-227 تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى القاهرة 1934 .

(5) الطيب هنا الظرف « كان (الحزامي) أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله »

البخلاء ص 59 . ط. دار المعارف 1958 .

التي أثبتتها علم النفس الحديث وهي استحالة إقامة فاصل بين واضح بين الانسان السوي وغير السوي بل إنه لا وجود للانسان السوي فذلك مفهوم نظري مجرد لا ينطبق على الحقيقة الواقعة . فبما من إنسان سوي عادي إلا فيه جانبٌ — وإن قليلٌ وإن غير واعٍ — من غرابة وشذوذ ولو بدآ هذا الانسان بسيط المظهر تافها في العين مبتذلا .

لم يحفل الجاحظ بالانسان في شؤون المألوفة وأحواله المبتذلة الرتيبة بقدر ما اتجهت عنايته إلى نواحي العجب والغرابة فيه ، والشواهد على ذلك كثيرة . كلنا يعرف قصة قاضي البصرة الزميت الذي أفرط في تكلف المهابة والوقار فكان آية للناظرين . يقول الجاحظ : « كان يصلّي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتسبي ولا يتكسّى ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحول رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة ... كذلك كان شأنه في طوال الايام وفي قيصارها ، وفي صيفها وفي شتائها » (6) .

وإذا حادثة بسيطة لا أبسط منها ولا أنف.. ذبابة تقع ذات يوم على أنفه وتلح عليه غاية الإلحاح متصدية لأشد المواضع حساسية في الوجه وهو المؤق ولا تزال به حتى يعتمد القاضي إلى ذبها بطريقة غريبة ينهار لها كل ما اصططنه من مهابة ووقار . وإذا هو مثال السخف وقد وقع في عكس ما كان يتطلبه بغاية جهده . وقد يما قال المتنبي :

أبلغ ما يُطلب النجاح به الطبع وعند التعمق الزللُ

فكل غلو يؤول بصاحبه إلى ضده ما يتبغي ويطلب .

والجدير بالملاحظة أن الرجل ، كما نعلم ، عن حسن نية أي أنه يتكلف الوقار والمهابة جهده ظناً منه أن ذلك يخدم وظيفته ويصلح من دينه وأخلاقه

ولم يابر أن هذا الحرص البالغ على الهيئة والوقار صادر عن عجب دفين متدكن من نفسه .

أليس أن الجاحظ قد نبهنا هنا عن طريق اللّمس وبصفة غير مباشرة إلى ما في النفس البشرية من غموض وتعقيد قد تلبس معها أحوال المرء وخواطره عليه وعلى الناس ؟

نعم قد تلبس أحوال المرء لفرط ما فيه من تضارب وتناقض حتى يصبح بحق لغزا محيرًا يستعصي على الفهم والتحليل .

هنالك صنف من النفسيات تمتاز بالغرابة المفرطة والشذوذ الخارق الذي يبلغ حده الحالة المرضية (Cas pathologique) والأمثلة هنا متعددة كثيرة التنوع شديدة الاختلاف والتباين ، منها :

نفسيات بسيطة وكأنها بدائية ولكنها غامضة لا تعي نوازعها وميولها فتعجز كل العجز عن تحليل سلوكها وتبرير اختياراتها .

كمثل الشيخ الإباضي يحتج لكرهيته للشيعية بحجة طريفة ولكن ليس فيها من المنطق والمعقول شيء . الواقع أنه يكره الشيعة وليس يدري لماذا ؟ إنما هو التقليد . ولم يعمد الجاحظ إلى مثل هذا التعليل ولو قد فعل لأفسد النادرة ؛ فمثل هذا السبب لا يخفى عليه : « فقلت (الجاحظ) : وما أنكرت من التشيع ومن ذكر الشيعة ؟ قال : أنكرتُ منه مكان الشين التي في أول الكلمة ؛ لأنني لم أجاء الشين في أول كلمة قط إلاّ وهي مسخوطة مثل : شؤم ، وشر ، وشيطان ، وشغب ، وشحّ ، وشجن ، وشيب ... » (7) .

وكمثل الحارس الأعجمي الألكن الذي تكنّى أبا خزيمة... كنية عربية صمدية وليس يدري لماذا اختار هذه الكنية بالذات واقترح عليه الجاحظ شراءها منه بلدينار فرفض «... قلت (الجاحظ) : فلم اكتنيت بأبي خزيمة ،

وأنت عِلْجُ أَلْكَنَ وَأنت فقير ، وأنت حارس ؟ قال : هكذا اشتهيت . قلت : فلائي شيءٍ شهيت هذه الكنية من بين جميع الكنى ؟ قال : ما يُلدريني ؟ قلت : فتبيعها الساعة بدينار ، وتكتني بأي كنية شئت ؟ قال : لا والله ، ولا بالدنيا وما فيها » (8) .

وكمثل الزيادي ترك بيته في حبي لائق موافق وآثر السكْنَى قرب البزّازين في مكان غير صحي وهو لا يلدرى كيف يعلل هذا الاختيار : « وحدثني مسعدة بن طارق قلت للزيادي ومررت به وهو جالس في يوم غَمَمِيقٍ حارٍّ وَمِيدٍ على باب داره في شروع نهر الجُوبار ... فقلت له : بَعَثَ دارك ... وجلست على هذا النهر في مثل هذا اليوم ورضيت به جارا ؟ قال : نلت أطول آمالي في قرب هؤلاء البزّازين ، قلت له : لو كنت بقرب المقابر فقلت : نَزَلْتُ هذا الموضع للاعاط به والاعتبار كان ذلك وجهها ، ولو كنت بقرب الحدادين فقلت : لَأَتَدَكَّرَ بهذه النيران والكيران نارَ جهنم ، كان ذلك قولاً . ولو كنت اشتريت داراً بقرب العطارين فاعتلت بطلب رائحة الطيب كان ذلك وجهها . فأما قرب البزّازين فقط فهذا ما لا أعرفه ... فلم يكن عنده إلا : نلتُ آمالي بقُرب البزّازين » (9) .

وكمثل ذلك الرجل طارد امرأة أعجب بها . ولماذا ؟ لقد تبعها لما عليها من سيء الخير « وبيننا داود بن المعتز الصبيري جالس معي ، إذ مرت به امرأة جميلة ، لها قوام وحُسْنٌ ، وعينان عجيبتان ، وعليها ثياب بيض . فنهض داود فلم أشك أنه قام ليتبعها فَبَعَثْتُ غلامي ليعرف ذلك . فلما رجع قلت له : قد علمت أنك إنما قمت لتكلمها ؛ فليس ينفعك إلا الصادق ، ولا يُنْجيك مني الجحود ، وإنما غايتي أن أعرف كيف ابتدأت القول ... قال : ابتدأت القول بأن قلت لها : لولا ما رأيت عليك من

(8) نفس المصدر ج 3 ص 28 .

(9) نفس المصدر ج 3 ص 28-30 .

سيماء الخير لم أتبعك . قال : فضحكت حتى استندت إلى الحائط ثم قالت : إنما يمنع مثلك من اتباع مثلي والطمع فيها ما يرى من سيماء الخير !؟ فأمّا إذْ قد صار سيماء الخير هو الذي يُطمعُ في النساء فإنّسا لله وإنا إليه راجعون » (10) .

نمط آخر من الشخصيات الغريبة... هي تلك التي تتصف بالنهم الشديد في الشرب أو الأكل « وقال رمضان لأبي شعيب القلال وأبو هذيل حاضر : أي شيء تشتهي ؟ وذلك نصف النهار في يوم من صيف البصرة . قال أبو شعيب : أشتهي أن أجيء إلى باب صاحب سَقَمَط ، وله على باب حانوته ألية معاقلة ، من تلك المبرزة المشرّجة ، وقد اصفرّت ، وودكها يقطر من جاق السمن فأخذ بحضنها ثم أفتح لها فمي ، فلا أزال كدّمًا كدّمًا ، ونهشًا نهشًا ، وودكها يسيل على شذقي حتى أبلغ عجب الذنب ! قال أبو الهذيل : ويلك ! قتلتنني قتلتنني !! يعني من الشهوة » (11) .

ثم نندرج في الغرابة والشذوذ فإذا نحن بإزاء ذلك الشجاع الذي قتل حية خبيثة ولكنه فرع فزعا شديدا من فأر (12) .

ونتدرج أكثر وإذا نحن ندهش حينما نتعرف إلى ذينك الصديقين المشغوفين برائحة التيوس على شدة نَسْنَنها يقفان مليًا بالطريق حتى يمر القطيع بهما « وإنا لندخل السكة وفي أقصاها تيّاس ، فنجد نَسْنَنها من أدناها حتى لا يكاد أحدهما يقطع تلك السكة إلا وهو مُخَمَّرُ الأنف إلا ما كان مِمَمًا طبع الله عز وجل عليه البكوري وعكسيا الأسواري ؛ فإن بعضهما صادق بعضا على استطابة ريح التيوس . وكانا ربما جلسا على باب التيّاس ليستنسّشا تلك

(10) نفس المصدر ج 3 ص 35-37 .

(11) نفس المصدر ج 5 ص 475-476 .

(12) نفس المصدر ج 5 ص 256-257 .

الرائحة ، فإذا مرّ بهما من يَعْرِفُهُما وأنكر مكانهما ، ادعيا أنهما ينتظران بعض من يخرج إليهما من بعض تلك الدور » (13) .

كما نعجب للمكيّ الذي كان شدّا يحبّ في جاريته رائحة عرقها ويريدها ألاّ تغتسل فأصبحت كلما أرادت منه شيئا تهدده بالاغتسال فينطاع لرغبتها .

« فأما المكسي فإنه تعشّق جارية يقال لها سَنَدَرَة ، ثم تزوجها نهارية . وقد دعاني إلى منزلها غير مرة وخبرني أنها كانت ذات صنان ، وأنه كان معجبا بذلك منها ، وأنها كانت تعالجه بالمرتك ، وأنه نهاها مرارا حتى غضب عليها في ذلك . قال : فلما عرفت شهوتي كانت إذا سألتني حاجة ولم أقضِها قالت : والله لأتدرتكن ثم والله لأترتمكن » ، ثم والله لأتدرتكن ! فلا أجد بُدّا من أن أقضي حاجتها كائن ما كان » (14) .

وأخيرا ، وهو منتهى الشذوذ وصميم المرض النفساني ، مثل ذلك الرجل الذي كانت هوايته تنسّم رائحة الكرياس (أي الكنيف) (15) .

كما أننا نستفيد فائدة جمة ومتعة فنية خالصة عند قراءة القصص المتعلقة بأخلاق الجوّاري والعلمان والخصيان (16) فنعرف مثلا أن من طباع الخصيان الاستخفاف بمن لا مال له ولا جاه ولا سلطان (17) .

وأیضا عند قراءة ذلك الصنف البديع من القصص وهو ما يمكن أن نعتبه بالقصص النفساني البيولوجي فنجد مثلا قصة طريفة تتصل بقوة الشم (18)

(13) نفس المصدر ج 5 ص 466-467 .

(14) نفس المصدر ج 5 ص 467-468 .

(15) نفس المصدر ج 5 ص 468-469 .

(16) نفس المصدر ج 1 ص 172-173 .

(17) نفس المصدر ج 1 ص 159 .

(18) نفس المصدر ج 4 ص 425 .



وأخرى بأثر النيذ في عمر الانسان (19) وأخرى في تأثير زواج الاجناس المتباينة في الميول الجنسية (20) .

ومن أهم ما ورد من قصص في كتاب الحيوان بل هو الأهم باعتبار الجادة والطرافة وبعد الدلالة على خفايا النفس البشرية القصص الجنسي .

نعم لقد جاء في الحديث النبوي قصص غاية في الجزأة والصراحة وشدة الواقعية منها قصة امرأة ذلك الصحابي التي مات ولدها الصغير وكان زوجها غائبا فلما حضر زوجها كتمت الأمر واستقبلته بالبسط والإيناس ثم ناما .. وكأن لم يحدث شيء وفي الصباح أخبرته بالحادثة فتخرج الصحابي غاية التخرج ولا م زوجته ولم يزل ضميره يؤنبه حتى ذهب إلى الرسول فهلهأ الرسول من روعه (21) .

ولكن قصص الجاحظ يختلف عنه كمنأ وكيفا ، ووجهة وغاية .

الامثلة كثيرة متنوعة متعددة حتى لسنحار في الاختيار وسأكتفي بشاهد واحد هو حديث « أبي المبارك الصابي » الذي يكاد يخرج قلبه من صدره عند سماع صوت المرأة لشدة حنينه إليها وشغفه بها رغم الخصاء وتقادم السن وكان في سن التسعين .

« ... فقال لنا : ألتسم تعلمون أنني قد أريت على المائة ، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهن الكبر ونفاد الذكر وموت الشهوة وانقطاع ينبوع النطفة ، قد أمت حنينه إلى النساء وتفكيره في الغزل قلنا : صدقت... قال : هذا وأتسم تعلمون أنني سمكت عيني يسوم خصيت نفسي ، فقد نسيت كيفية الصور وكيف ترؤع ، وجهلت المراد

(19) نفس المصدر ج 1 ص 158 .

(20) نفس المصدر ج 1 ص 148 .

(21) صحيح مسلم ج 7 ص 145-146 . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

منها ، وكيف تراد ، أفما كان — من كان كذلك — حرياً أن تكون نفسه ساهية لاهية ، مشغولة بالباب الذي احتمل له هذه المكارة . قلنا : صدقت ... قال : فإنني بعد جميع ما وصفت لكم لأسمع نعمة المرأة فأظن مرة أن كبدي قد ذابت ، وأظن مرة أنها قد انصدعت ، وأظن مرة أن عقلي قد اختلس وربما اضطرب فؤادي عند ضحكك لإحداهن حتى أظن أنه قد خرج من فمي ، فكيف ألوم عليهن غيري » (22) .

فالفرق بين واضح بين قصص يعرض للمواقف والمشاكل الجنسية من حيث اتصالها بالشريعة والضمير الديني وبين قصص ينظر إلى « الجنس » على أنه موضوع قائم بذاته فيركز عليه غاية اهتمامه ويتفنن جهاده في إبراز أهم مظاهره ، ولعلّ أبلغ دليل على ذلك أن الجاحظ خص هذا الموضوع برسالة هي كتاب « مفاخرة الجوّاري والغلمان » وما هذه الرسالة إلاّ مناظرة بين اللّالة والزّناة .

وصفوة القول إن ما في قصص الجاحظ من ملاحظة لدقائق السلوك وغمائمه ، وقدرة فائقة على التغلغل في أعماق النفس البشرية يؤهله لأن يُعْتَبَر رائداً للقصّة النفسانية العربية ... رائداً لا يتمثل فضله في مجرد السبق والابتكار وإنما يصح القول إنه قفزَ بالقصة رأساً إلى مستوى إنساني وفني ممتاز في الأدب العربي القديم ، لا يدانيه في ذلك إلا أبوحيان التوحّيدي تلميذه المتشبع بأدبه ، وخاصة في « الإمتاع والمؤانسة » وفي « أخلاق الوزيرين » .

إن الجاحظ ليُعدّ بحق — كما قال أبو حيّان عن نفسه — « من نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال ، والذين قد فرّغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج ما في الصدور واعتبار الأسباب » (23) .

(22) الحيوان ج 1 ص 126-128 . انظر أيضاً نفس المصدر ج 1 ص 172-173 ، 174-175 ، 371-372 ؛ ج 2 ص 58-59 ؛ ج 3 ص 36-37 ؛ ج 5 ص 117-118 ، 313 .

(23) الإمتاع والمؤانسة ج 1 ص 59-60 . لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية . القاهرة 1953 .